

الباب الثامن

في تفسير الفاتحة بقول كلي

اعلم أن الله تعالى افتتح كتابه بالحمد لا بالشكر ولا بالثناء، لأن الحمد أتم وأكمل منهما وأحاطهما بالاستيفاء. ثم ذلك ردّ على عبدة المخلوقين والأوثان، فإنهم يحمّدون طواغيتهم وينسبون إليها صفات الرحمن.

وفي الحمد إشارة أخرى وهي أن الله تبارك وتعالى يقول أيها العباد اعرفوني بصفاتي، وآمنوا بي لكمالاتي، وانظروا إلى السماوات والأرضين، هل تجدون كمثلي ربّ العالمين، وأرحمّ الراحمين، ومالك يوم الدين؟

ومع ذلك إشارة إلى أن إلهكم إله جمع جميع أنواع الحمد في ذاته، وتفرد في سائر محاسنه وصفاته. وإشارة إلى أنه تعالى منزّه شأنه عن كل نقص وحؤول حالة ولحوق وصمة المخلوقين، بل هو الكامل المحمود، ولا تحيطه الحدود. وله الحمد في الأولى والآخرة ومن الأزل إلى أبد الأبد. ولذلك سمّى الله نبيّه أحمد، وكذلك سمّى به المسيح الموعود ليشير إلى ما تعمّد.

وإن الله كتب الحمد على رأس الفاتحة، ثم أشار إلى الحمد في آخر هذه السورة، فإن آخرها لفظ ﴿الضَّالِّينَ﴾، وهم النصارى الذين أعرضوا عن حمد الله وأعطوا حقه لأحدٍ من المخلوقين. فإن حقيقة الضلالة هي تركُ المحمود الذي يستحقُّ الحمد والثناء، كما فعل النصارى ونحتوا من عندهم محمودًا آخر وبالغوا في الإطراء، واتبَعوا الأهواء، وبعُدوا من عين الحياة، وهلكوا كما يهلك الضالُّ في المَومة. وإن اليهود هلكوا في أوّل أمرهم وباءوا بغضبٍ من الله القهار، والنصارى سلكوا قليلاً ثم ضلُّوا وفقدوا الماء فماتوا في فلاة من الاضطرار.

فحاصل هذا البيان أن الله خلَقَ أحمدَيْن في صدر الإسلام وفي آخر الزمان، وأشار إليهما بتكرار لفظ الحمد في أول الفاتحة وفي آخرها لأهل العرفان. وفعل كذلك ليردّ على النصرانيين، وأنزل أحمدَيْن من السماء ليكونا كالجدارَيْن لحماية الأولين والآخرين.

وهذا آخر ما أردنا في هذا الباب، بتوفيق الله الراحم الوهاب. فالحمد لله على هذا التوفيق والرفاء، وكان من فضله أن عَهَدَنَا قُرِنَ بالوفاء، وما كان لنا أن نكتب حرفاً لولا عونُ حضرة الكبرياء. هو الذي أَرَى الآياتِ، وأنزل البيّناتِ، وعصم قلمي وكَلَمِي من الخطأ، وحفظ عِرْضِي من الأعداء. وإنه تبوّأ منزلي، وتجلّى عليّ وحضر

محفلي واجتباي لخلافته، وأبقى مرعاي على صرافته. وزكائي فأحسن تزكيتي، ورباني فبالغ في تربييتي. وأنتبني نباتًا حسنًا، وتحملي عليّ وشغفني حبًّا، حتى إنني فرغتُ من عداوة الناس ومحبتهم، ومدح الخلق ومذمتهم، والآن سواء لي من عاد إليّ أو عادى، وراد من ضياعي أو رادى. وصارت الدنيا في عيني كجارية بُدئتُ، واسودَّ وجهها وصفوفُ الحسنِ تقوّضتُ، وشَمَمُ الأنفِ بالفُطسِ تبدلَ، ولَهَبُ الحدودِ إلى النَمَشِ انتقلَ، فنجوتُ بحول الله من سطوتها وسلطانها، وعُصِمْتُ من صولة غولها وشيطانها. وخرجتُ من قوم يتركون الأصل ويطلبون الفرع، ويضيعون الورع لهذه الدنيا ويُجِبُّون الزرع. ويريدون أن يحتكئ قولهم في قلوب الناس، مع أنهم ما خلصوا من الأدناس. وكيف يُترقب الماء المَعِينُ من قِرْبَةٍ قَضِيَتْ، والخلوصُ والدينُ من قريحَةٍ فسدتْ؟ وكيف يُعدُّ الأسيرُ كمُطَلَقٍ من الإِسارِ؟ وكيف يدخلُ المُقْرِفُ في الأحرارِ؟ وكيف يتدأكأُ الناسُ عليه، وهو خبيثٌ وخبيثٌ ما يخرجُ من شفتيه؟ وإنَّ قلمي بُرِّئُ من أدناس الهوى، وبُريَّ لإرضاء المولى. وإن ليراعي أثر من الباقيات الصالحات، ولا كأثرِ سنابكِ المسومات. ونحن كُماةٌ لا نزلُ عن صهوات المطايا، وإنا مع ربنا إلى حلول المنايا. وإن خيلنا تجول على العدا كالبازي على العصفور، أو كالأجدل على الفأر المذؤور.

رُويَدَ أعدائي بعضَ الدعاوي، ولا تدَّعوا الشَّعَ مع البطن الخاوي. أتقومون للحرب برماح أُشرعتْ، ولا ترون إلى حُجُبِكُم وإلى سلاسل تُقَلَّتْ. ترون غمراتِ الندمِ ثم تفتحمونها، وتجدون غمَّاءَ الذلِّ ثم تزورونها. وإِنَّمَا مثلكم كمثلِ عَنزٍ تَأْكُلُ تارةً من حشيشٍ وتارةً من كلاء، ولا يطيع الراعي من غيرِ خلاء. وكل ما هو عندكم من العلمِ فليس هو إلا كالكدوسِ المَدُّوسِ الذي لم يُذَرَّ، وخالطه روثُ الفدَّادين وغيرها مما ضَرَّ. ثم تقولون إِنَّا لا نحتاج إلى حَكَمٍ من السماء، وما هي إلا شِقْوَةٌ، ففكروا يا أهل الآراء.

وإني أعلمُ كعلمِ المحسوساتِ والبديهيَّاتِ، أني أرسلتُ من ربي بالهداياتِ والآياتِ، وقد أُوحِيَ إِلَيَّ إلى مدَّةٍ هي مدَّةٌ وحي خاتمِ النبيين، وكُلِّمْتُ قبل أن أزنأَ من الأربعين، إلى أن زَنَأْتُ للستين. وهل يجوز تكذيب رجلٍ ضاهتْ مدَّتُه مدَّةَ نبيِّنا المصطفى؟ وإن الله قد جعل تلك المدَّةَ دليلاً على صدق رسوله المجتبي، وسمعتُ إنكاره من بعض الناس، وما قبلوا هذا الدليل بلمَّةٍ من الوسواسِ الخنَّاسِ، فاكْتَلَأْتُ عيني طول ليلي، وجرت من عيني عينٌ سيلِي، فكَلَّمَنِي ربي برحمته العظمى، وقال قُلْ: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾. فله الحمد وهو المولى، وهو رَبِّي في هذه وفي يومٍ تُحشِرُ كلُّ نفسٍ لُتْجَزَى.

رَبِّ انزِلْ عَلَى قَلْبِي، وَاظْهَرْ مِنْ جِيبِي بَعْدَ سَلْبِي، وَامْلَأْ بِنُورِ
 الْعِرْفَانِ فَوْادِي. رَبِّ أَنْتَ مُرَادِي فَآتِنِي مُرَادِي، وَلَا تُمَتِّنِي مَوْتَ
 الْكِلَابِ، بِوَجْهِكَ يَا رَبَّ الْأَرْبَابِ. رَبِّ إِنِّي اخْتَرْتُكَ فَاخْتَرْنِي،
 وَانظُرْ إِلَى قَلْبِي وَاحضُرْنِي، فَإِنَّكَ عَلِيمُ الْأَسْرَارِ، وَخَبِيرٌ بِمَا يُكْتَمُ مِنْ
 الْأَغْيَارِ. رَبِّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ أَعْدَائِي هُمُ الصَّادِقُونَ الْمُخْلِصُونَ،
 فَأَهْلِكْنِي كَمَا تُهْلِكُ الْكَذَّابُونَ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَيُّ مِنْكَ وَمَنْ
 حَضَرْتُكَ، فَقُمْ لِنُصْرَتِي فَإِنِّي أَحْتَاجُ إِلَى نَصْرَتِكَ، وَلَا تُفَوِّضْ أَمْرِي
 إِلَى أَعْدَاءِ يَمْرُونِ عَلَيَّ مُسْتَهْزِئِينَ، وَاحْفَظْنِي مِنَ الْمَعَادِينِ وَالْمَاكِرِينَ.
 إِنَّكَ أَنْتَ رَاحِي وَرَاحِي، وَجَنَّتِي وَجُنَّتِي، فَانصُرْنِي فِي أَمْرِي وَاسْمَعْ
 بِكَائِي وَرُتِّي، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَهَبْ
 لَهُ مَرَاتِبَ مَا وَهَبْتَ لِغَيْرِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ. رَبِّ أَعْطِهِ مَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَنِي
 مِنَ النِّعْمَاءِ، ثُمَّ اغْفِرْ لِي بِوَجْهِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِمَاءِ. وَالْحَمْدُ لَكَ
 عَلَى أَنْ هَذَا الْكِتَابُ قَدْ طُبِعَ بِفَضْلِكَ فِي مَدَّةِ عِدَّةِ الْعَيْنِ، فِي يَوْمِ
 الْجُمُعَةِ وَفِي شَهْرِ مَبَارِكِ بَيْنَ الْعِيدَيْنِ. رَبِّ اجْعَلْهُ مَبَارَكًا وَنَافِعًا
 لِلطُّلَّابِ، وَهَادِيًا إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ، بِفَضْلِكَ يَا مُجِيبَ الدَّاعِينَ.
 آمِينَ ثُمَّ آمِينَ.

وَأَخْرَجْنَا دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.